تراثنا بين الاخطاء والاخطار

الاستاذ الدكتور/ لطفى عبد الوهاب

تراثنا بين الأخطاء والأخطار

الحديث عن التراث حديث بدأ يتردد في وطننا العربي منذ فترة طويلة - يزداد ترداده حينا، وينساب هادئا حينا آخر، ويخف أو يخفت في أحيان كثيرة حتى يكاد يقتصر علي عدد من الحقائق المتناثرة نستحضر من خلالها لحظات أو لقطات ساطعة من بين ما قام به أسلافنا في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الانجاز، نرتاح اليها أو نستعيد بذكرها قدرا من الثقة في أنفسنا بشكل آني ثم لاتزيد علي ذلك كثيرا. علي أن الوعي بالتراث العربي بدأ يستعيد نبضه مؤخرا في عدد من الاتجاهات : أولها زيادة استقطابه للاهتمام الرسمي علي مساحة الوطن العربي، إلى جانب الاهتمام الشعبي سواء على مستوى الهيئات أو الأفراد. كذلك هناك تعدد الجوانب المطروحة من التراث، علما أو أدبا أو فكرا أو فنا أو نصرا عسكريا أو غير ذلك. وأخيرا، وليس آخرا، يأتي الاهتمام بنشر هذا الوعي عن طريق عدد متزايد من قنوات التعليم والاعلام وبمعالجات تخدم الأهداف المتفاوتة، ابتداء من الحديث العام الذي يقصد الى التعريف السريع بجانب أو بآخر من جوانب التراث من جهة وانتهاء بالدراسات المتخصصة التي تستهدف التفصيل والتحليل من جهة أخرى.

والحديث الذي أقدمه في هذه السطور ليس حديثا عن مضمون تراث الوطن العربي من حيث مجالات المعرفة التي تدخل ضمن هذا المضمون وما تشتمل عليه هذه المجالات من تفاصيل ، وانما يتناول ما يتعرض له هذا التراث في إطاره العام من أخطاء في التصور نقع فيها نحن أبناء هذا الوطن ، أو أخطار تنطلق من خارج وطننا وتستهدف تراثنا في صورة أو في أخرى.

ولكي ندرك الحجم الحقيقي لهذه الأخطاء والأخطار، لابد لنا من وقفة

قصيرة نحدد من خلالها ما نقصده بالتراث، حتى نتعرف علي قيمته في حياتنا ومن ثم ندرك أبعاد ما ينبغي أن نقوم به في سبيل المحافظة عليه. ورغم تعدد التصورات التي قُدّمت ولا تزال تُقدّم حتى الآن حول ما نقصده بالتراث، فان تحديدا بسيطا يمكن أن يفي بهذا الغرض في عمومه : وهو أن التراث هو كل ما توصل اليه المجتمع من انجازات في تعامله ، عبر التاريخ، سواء مع ظروف البيئة التي ينتمي اليها ويحيط به مباشرة، أو مع الظروف الخارجية التي يجد نفسه في مواجهتها أو علي اتصال بها- انتفاعا بايجابيات هذه الظروف وتطويرا لها أو تفاديا لسلبياتها وتقليصا لها. وفي ضوء هذا التعريف أو التحديد يصبح في مقدورنا أن ندرك أهمية التراث: فمحصلة حوارنا مع هذه الظروف ومدى نجاحنا في التعامل مع ما تقدمه من تحديات ، سواء على المستوى المحلي أو على مستوى الاحتكاك مع الآخرين على مر العصور ، هي التي تحدد نوع تجربتنا التي تتميز عن تجارب غيرنا، وتحدد عطاءنا على المستويين المحلي والخارجي، ومن ثم الموقع الذي يشغله دورنا الحضاري على مسار الحضارة الانسانية - وهو الدور الذي يشكل محور هويتنا الحضارية. وهذه الهوية الحضارية الممتدة في تطورها على مسار تاريخنا، هي التي تتخطى وجودنا كأفراد لتجعل منا كيانا له أبعاده الخاصة به التي تحفظه من الاندثار أو الذوبان في الكيانات الأخرى - وهنا تكمن قيمة المحافظة على التراث.

على أن المحافظة علي تراثنا ، اذا كان شقها الأول هو جمع هذا التراث وتوصيله الي أبناء هذا الوطن علي كافة المستويات وبشتى الوسائل التي تقع تحت أيدينا أو التي يمكن أن نتوصل اليها، فان الشق الآخر الملازم لذلك هو التعرف على المساحة الحقيقية للدائرة التي تضم هذا التراث - ومن هنا ندخل في حديث الأخطاء والأخطار التي يمكن أن تنتقص من هذه المساحة أو تشوش على حدود الدائرة التي تحتويها.

وفي مجال الحديث عن الأخطاء التي نقع فيها، هناك ثلاثة أخطاء رئيسية: أولها يخص المنطلق الزمني لتراث الوطن العربي، وأعني بذلك البداية التاريخية الحقيقية لهذا التراث. ان التصور الشائع والغالب حتى الآن ، سواء في الأوساط المثقفة أو على المستوى العام، هو أن تراثنا العربي يبدأ مع بداية المد الاسلامي والفتوحات العربية. ولاشك أن المد الاسلامي الذي واكب الانطلاقة الفتيّة للعقيدة الجديدة، بكل ما رسمته لنفسها من دور عالمي ، شكّل الدفعة الهائلة وراء المد الحضاري العربي في العصر الاسلامي. ولا شك كذلك في أن حركة التعريب التي جاءت في أعقاب هذا المد أدت الى أن تصبح العربية هي أداة التعبير الوحيدة، ومن ثم الوسيلة الموحدة للتداول الفكري في كل أرجاء المنطقة التي أصبحت وطننا العربي . وقد أدت هذه الوسيلة الموحدة الى وحدة الحركة الثقافية وحالت دون تبعثرها ، وبذلك أعطتها الزخم الذي تميز به انجازها. ولكن ، الى جانب هاتين الحقيقتين الثابتتين ، هناك حقيقة أخرى لا سبيل الى نكرانها أو المماراة فيها : وهي أن المد الحضاري العربي في العصر الاسلامي لم يبدأ من نقطة اللاشيء. فالمنطقة التي شهدت هذا المد لم تكن خلوا من الانجازات الحضارية التي تضرب جذورها في أعماق الماضي لعدة آلاف من السنين . وقد كانت هذه الانجازات والتجارب الحضارية هي الروافد التي جمعتها قوة الدفع الجديدة وحركة التعريب لتصب في المجرى الحضاري العربي في العصر الاسلامي، فيستوعبها ويضم اليها روافد من حضارات قديمة أخرى عن طريق حركة الترجمة ، ثم يطورها ويزيد عليها لتشكّل في النهاية مرحلة جديدة من مراحل مسيرتنا الحضارية ، ومن ثم من مراحل النمو الطبيعي لتراثنا وهويتنا الحضارية.

وفي ضوء ما قدمتُ فإن الحضارة العربية التي قامت في العصر الاسلامي تصبح في حقيقة الأمر استمرارا وتطويرا للتجارب الحضارية التي

عرفتها منطقتنا منذ بداية تاريخها، ويصبح التردد أمام هذه الحقيقة أمرا لا مبرر له مهما كانت الاعتبارات التي تقف وراء هذا التردد. وفي الواقع فاننا بتجاهلنا للجذور أو الروافد الأولى لحضارة الوطن العربي انما نبتر النتائج عن مقدماتها الطبيعية، ونصور حضارتنا في العصر الاسلامي على أنها بناء قام على غير أساس من التطور الحضاري الطبيعي الذي تؤدي فيه مرحلة حضارية الى المرحلة التي تليها، وتكون بذلك قد استغنينا، طواعية، عن شوط من مسار تراثنا يمتد من فجر التاريخ حتى القرن السابع الميلادي.

أما الخطأ الآخر الذي نقع فيه في مجال التعرف الكامل على تراثنا، فسببه عدم الاهتمام أو عدم المعرفة الواضحة. وأشير في هذا الصدد الى ما قدمه أبناء منطقتنا من عطاء حضاري لم يتوقف خلال ألف سنة من تاريخنا - وفي الفترة التي امتدت بين فتح الاسكندر المقدوني للمنطقة وبين المد العربي في العصر الاسلامي. والسبب الذي يحجب عنا هذه الحقيقة هو أن هذا العطاء أو هذا الانجاز الحضاري تم التعبير عنه آنذاك من خلال وسيلة للتداول الفكري وردت الينا من خارج المنطقة في ظروف تاريخية استوجبت ذلك، ثم ما لبثنا أن تبنيناها - في ظل هذه الظروف - أداة للتعبير الثقافي عن انجازنا الفكري. وأعني بهذه الوسيلة: اللغة اليونانية التي أصبحت لغة الثقافة السائدة خلال هذه الفترة في القسم المتحضر من أوروبه وفي كل منطقة الشرق الأدنى وشمال أفريقية - ومن بينها منطقتنا.

لقد ظهر في هذه الفترة عدد كبير من علماء منطقتنا ومفكريها قدموا انجازاتهم من خلال اللغة اليونانية، وكان لعطائهم أثر فعال في حضارة الفترة المذكورة لم يقتصر على المنطقة، ولكنه تخطى حدودها لينقل أثره الواضح في المجتمعات الأوروبية. ومن بين هؤلاء، على سبيل المثل لا الحصر، علماء مدرسة الاسكندرية مثل اراتسطين في مجال الفلك وهو من قورينه في ليبيه، واقليدس

السكندرى فى مجال النظريات الهندسية وبطلميوس كلاوديوس من صعيد مصر فى مجال الرياضيات- وجميعهم رفدوا العلوم الأوروبية بما توصلوا اليه فى هذه المجالات . ومن بين هؤلاء كذلك فلاسفة من أمثال زينون السورى، مؤسس المذهب الرواقى الذى نادى بمبدأ الأخوة العالمية ودرّسه فى أثينا لتتبناه بعد ذلك الأوساط الثقافية فى روما. ومن بينهم الشاعر ملباغروس الأردني الذى ولد وترعرع فى أم قيس (جَدَرَة كما كانت تدعى آنذاك) وقضى فترة رجولته فى مدينة صور وتفنى، مرة أخرى، بفكرة الأخوة العالمية التى بشر بها زينون ، فى عصر كان فيه الاتجاه العرقى اليونانى يحكم الخناق على العقول والنفوس. ومن بينهم ،أخيرا وليس آخرا ،يوسيبيوس المفكر الدينى الفلسطينى، الذى ولد وعاش فى قيسارية وقام بدور هائل فى إبراز الخط الانسانى فى العقيدة المسيحية ، الجديدة آنذاك ، أمام الهجمات التى وجهتها اليها الامبراطورية الرومانية، فكرا وممارسة، والتى وصلت الى ذروتها أثناء فترة اضطهاد شرسة شهدتها وصمدت خلالها هذه المدينة الفلسطينية. وهكذا جاءت أفكار هؤلاء الفلاسفة والشعراء والمفكرين الدينيين تجسيدا للهوية الحضارية للمنطقة فى وجه الهجمة الأوروبية على كيانها وثقافتها.

ثم نأتى الى الخطأ الثالث الذى نقع فيه ازاء تراثنا: وهو عدم التحديد الذى يجعلنا نقف على استحياء، أمام قسم من التراث العربى فى العصر الاسلامى. والسبب الذى يؤدى الى ذلك هو أن عددا من الانجازات التى شهدتها منطقتنا العربية آنذاك تم على يد علماء ومفكرين ينتسبون الى أصول غير عربية، مثل الرازى وابن سينا اللذين ينحدران من أصل فارسى ومثل الفارابى الذى ينحدر من أصل تركى. ان البعض منا قد يقف حائرا أو مترددا أمام هذه الظاهرة التى يبدو فيها، للوهلة الأولى، قدر من التناقض : فالصفة العربية للانجازات حاضرة لا يمكن تجاهلها ، ومع ذلك فهذا الحضور يبدو خاليا من

خلال الأصل غير العربي لأصحاب هذه الانجازات .

ومع ذلك فان هذا التناقض ليس له في الحقيقة الا وجود ظاهري، ومن ثم فالحيرة والتردد أو الاستحياء، الذي قد ينتاب بعضنا ازاء، أمر لا ينبغي أن يكون واردا من أساسه. فالصفة العربية لتراث الوطن العربي ليست هوية عرقية أو عنصرية ولا يمكن أن تكون كذلك. فوطننا العربي ، شأنه شأن العديد من الكيانات الأخرى، يضم خليطا من الانتماءات العرقية - بعضها عربي، وبعضها عناصر من أبناء البلاد التي تعربت أو استعربت في أعقاب المد العربي في العصر الاسلامي، وبعضها الآخر عناصر جاءت من الهجرات العديدة التي انتقلت من الخارج واستقرت في منطقتنا في ظروف تاريخية متعددة ومختلفة. وإنما الصفة الحقيقية للتراث هي هوية الانتماء الثقافي، بالمعنى الحضاري للثقافة :وهو أسلوب الحياة والفكر الذي يشيع في مجتمع يعيش في منطقة واحدة وفي ظل نظام حياتي واحد.

وقد كانت هذه هي الصفة التي سادت المجتمع الذي ينتمي اليه العلماء والمفكرون المسلمون الذين يرجعون الى أصول عرقية غير عربية- عاشوا فيه وتعلموا وأنجزوا ضمن مناخه الحضاري الذي أتاحته الدولة التي تدر لها أن تكون مسئولة عن ترجيهه ورعايته، ثم قدموا انجازاتهم بلغة هذا المجتمع الذي أصبحوا جزءا منه حياة وفكرا وانتماء . فالانجاز الذي يقوم به الأفراد لايمكن أن ينشأ من فراغ، وانما ينشأ ويتم في ظل مناخ حضاري يسود المجتمع بأكمله ويدمغ بميسمه كل ما يتم داخل هذا المجتمع من أعمال أو أفكار أو اتجاهات.

وقد كان هذا المجتمع هو المجتمع العربي في العصر الاسلامي ، سادته الثقافة العربية ومن ثمّ شكلت الانجازات التي ظهرت فيه تراثا عربيا بغضّ النظر عن الأصول العرقية التي ينتمي اليها أشخاص المنجزين . ولعل أقرب مثال لذلك في الفترة التي نعيشها الآن هو الانجازات الحضارية التي تتم في مجتمع

مثل المجتمع الأمريكي فتصبح المجازات أمريكية تدخل ضمن التراث الأمريكي، بغض النظر عن الانتماءات العرقية لمن قاموا بها في هذا المجتمع الذي ينحدر أبناؤه من أصول عرقية جاءت من كل قارات العالم دون استثناء.

وأترك الآن حديث الأخطاء التي نقع فيها إزاء ما ينبغي أن يكون عليه تصورنا لتراثنا، لأنتقل الى الحديث عن الأخطار التي تحيط بهذا التراث من خارج المنطقة التي شهدت جذور تاريخنا والتي قدر لها أن تصبح وطننا العربي وقدرنا العربي. وأود، قبل أن أشير الي هذه الأخطار، أن أذكر أنها لم تقتصر علي مرحلة دون أخرى من المراحل التاريخية التي مررنا بها، فقد ابتدأت في العصور القديمة واستمرت عبر العصر الاسلامي ولا تزال قائمة وضارية حتى الفترة الحالية التي أصبحنا نعي فيها كياننا العربي - وهو الكيان الذي يشكل تراثنا محوره الزماني الممتد علي مسار التاريخ.

وتقع هذه الأخطار في عمومها ضمن اتجاهات ثلاثة : أولها هو ما يمكن أن نسميه محاولة الطمس الحضاري أوالتعتيم على الحضارات التي شهدها الوطن العربي ، بشكل متزايد في الآونة الأخيرة، لدى عدد متزايد من الكتاب الغربيين. وأسارع هنا فأقول إن هذا لا ينطبق على الدراسات المتخصصة التي يقوم بها الباحثون المتخصصون في أحوال منطقتنا، وانما الكتاب الذين أعنيهم في هذا الصدد هم الذين يكتبون للقارىء العام - والخطر هنا هو أن القارىء العام يمثل النسبة الغالبة من الرأي العام المثقف بالمقارنة مع القارىء المتخصص. وفي صدد استعراض هذه الكتابات العامة للحضارات العالمية نجد الحديث واضحا ومفيدا، ابتداء من حضارة الصين في أقصى الشرق الى حضارة الهنود الحمر في أقصى الغرب. أما فيما يخص الانجازات الحضارية في منطقتنا، سواء في عصورها القديمة أو الاسلامية، فالحديث عابر أو مقتضب أو ناقص في عدد غير قليل من الكتابات المذكورة . وهذا يبدو واضحا بالمقارنة مع الحديث

عن الدولة اليهودية القديمة مثلا، الذى تبدو العناية فيه واضحة بنظمها وعقيدتها وحضارتها وفكرها وأثر كل ذلك فى الحضارة الأوروبية - وهذا كله فى تفصيل وتحليل لا يتناسب والصفة العامة للكتابات المذكورة.

أما الخطر الثانى فيكمن فى تشويه عدد من الكتاب الغربيين للتراث العربى فى أكثر من صورة. ومن بين طرق التشويه فيما يخص انجازاتنا الحضارية فى العصور القديمة ما ذكره الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتراند رسل فى مجال المقارنة بين الحضارة اليونانية القديمة وحضارات الشرق الأدنى القديم. وهنا يذكر أن اليونان القدماء اخترعوا العلوم، أما فى الشرق الأدنى فقد عرف المصريون والعراقيون شيئا من الحساب (هكذا)، ولكن ما عرفوه فى هذا الحقل كان شيئا تقريبيا - وهو قول غريب من جانب هذا الفيلسوف فى ضوء ما خلفه لنا هذان الشعبان من نقوش ووثائق مكتوبة عن التنظير المتخصص فى الرياضيات (ناهيك عن بقية العلوم)، وهو ما توفر على درسه ونشره المتخصصون من الباحثين العرب والغربيين على السواء.

وأختم هذه السطور بالحديث عن خطر ثالث يتعرض له تراثنا من الخارج، وهو خطر السطو على هذا التراث على مر العصور. وفى هذا الصدد نجد الكتاب اليونانيين القدماء الذين نهلوا من منجزات حضاراتنا القديمة ينسبون الى أنفسهم ما أخذوه عنا من نظريات الطب والصيدلة والعلوم والرياضيات، وهو تنابز سبقناهم اليه بعدة آلاف من السنين فى بعض الأحيان، ولايزال قسم كبير من كتاباتهم قائما حتى هذه اللحظة وشاهدا على هذا النقل الذى لم ينسبه الناقلون الى أصحابه الحقيقيين.

والشيء ذاته نجده فى العصور الوسطى لدى بعض الكتّاب الأوروبيين الذين قاموا بترجمة الانجازات العلمية العربية فى العصر الإسلامى الى اللاتينية. وهنا، مرة أخرى، نجد بعض هؤلاء المترجمين ينسبون ما ترجموه الى أنفسهم، وهنا لم يرد الحق الى نصابه الا بعض العلماء المعاصرين من المهتمين بتاريخ العلوم عند

العرب، سواء من العرب أو المستشرقين الأوروبيين ممن قاموا بمقارنة الكتابات العربية واللاتينية وكشفوا النقاب عن هذا السطو التراثي.

أما في الفترة المعاصرة، لقد دخل اليهود بثقلهم في هذا الميدان من مسالك ، تبدأ جانبية، ولكنها لاتلبث عن طريق المثابرة أن تأخذ مظهر الحقيقة. ومن أمثلة ذلك ادراجهم ضمن التراث الاسرائيلي بعض ما أنجزته الحضارة العربية في العصر الاسلامي على أساس أن عددا من يهود أوروبه في العصور الوسطى قاموا بترجمة هذه الانجازات العربية الى اللاتينية التي كانت لغة الثقافة في أوروبه آنذاك ، ومن ثمّ أسهموا في إشاعة ما حوته من معرفة في دائرة الحضارة الأوروبية، وبذلك يحقّ لهم - حسب دعواهم - أن يُدخلوا هذه الإنجازات ضمن التراث الإسرائيلي ، بغضّ النظر عمّن قاموا فعلا بهذه الإنجازات وعن انتسابهم الحضاري الحقيقي.

هذا، وفي نهاية الحديث، أجد من الخير أن أذكر - رغم مخاطرة التكرار - أنّ تراث الوطن العربي (الذي تعرّضتُ في هذه العجالة إلى جانبه الفكري والعلمي) هو المحور الذي يدور حوله بعد أساسي من أبعاد كياننا، وهو البعد الزماني الذي تمثّله إنجازاتنا عبر العصور - ومن ثم يصبح التنبّه إلى كلّ ما يؤثر سلبيا على هذا التراث أمرا حيويا ، سواء أجاء ذلك في صورة أخطاء نقع فيها من حيث موقفنا إزاءه، أم تمثل في أخطار تنطلق من الخارج بهدف تشويهه أو الانتقاص من حجمه أو التعتيم عليه.